٤ العامل الذاتي :

توقفت بعض النفوس وآثرت الوحدة؛ خشية الوقوع في المحظورات، وفي الوقت نفسه يسهو الليل لقمة العيش، ولا يرضونه العمل ويخرجونه الجهاد إذا دعوا إليه، ومن أهم الأسباب التي دفعتهم لذلك:

* تصوير القرآن الكريم لأهوال يوم القيامة والتحذير من العذاب.
* قصار حياتهم في التوبة والاستغفار إذا تملكهم الهم والحزن.

ومن صور الزهد الرفيعة عمر بن عبد العزيز الذي كان يرتدي أطمار أمينة ولي الخلافة ولم يترك بعد وفاته إلا أربعمائة دينار، حين كانت غلته ٤٠ ألف دينار.

السعة دائرة الزهد، فنجد فيها: طبقة العباد المجتهدين كسويد بن غفلة، وطبقة البكائين الذين تخشى أعينهم من كثرة البكاء، ومنهم مطرف بن الشخير، وطبقة القراء الذين واظبوا على تعلم القرآن والعمل به وفي المدينة كان الزهد وثيق الصلة بالقرآن والحديث أما في البصرة (الحجاز) مسلك عمل عن طريق القص والوعظ أما الكوفة فتأثروا بالأوضاع السياسية

وهو اجتماع هذه العوامل استطاع الشواء تقديم أحسن الصنائع الشعرية ذات الطابع الديني المتميز وملكوا الأدب الذي لونه جيد لم يستطع أغراض الشعر أن يحس معالمها.

STUDENTS-HUB.com Uploaded By: anonymous

أسماء معطان
1191056

(7) ①

- أبو تمام -

كما نعلم، فإن الشعر ديوان العرب، فقد عنى الشعراء بتسجيل أمجادهم ومآثرهم من خلال نظم القصائد، وكانت العرب ترى في نبوغ الشاعر، والشعر بطبيعة يتمحور حول: العادة التي تؤكد التفوق والإبداع في الفن الأدبي، وخرقه العادة وإخراجه عما ألفوه. ومع ظهور النقد بدأت تظهر مصطلحات نقدية كالطبع والصنعة، وقسم الشعراء إلى قسمين: متكلفون ومطبوعون، فالمطبوعون الناتج متكلفة ومصنوعة.

ومن أصحاب المناهج الجديدة في نظم الشعر، أبو تمام، وذهب بعض النقاد إلى أنه شديد التكلف، وشعره لا يشبه شعر الأوائل؛ ففيه معانٍ مولدة وأكثر من توظيف الاستعارة.

اسمه ونسبه ومولده وموطنه:

هو حبيب بن أوس الطائي، من قبيلة طيء، واختلفوا في عروبة، حيث يرجع أهل والده إلى اليونان، وقالوا أنه اسمه حبيب بن تدوس النصراني، وغلط بعد إسلام والده فأطلق عليه أوس. وقيل في صباه في عمورية بنصرانية:

وذلك من دلائل في نسبتي ... فإنك من هذا الدهر منحور.
لو ذكرت طيء في ترسمي ... أظلم في ناظرك النور.

تشكك بعض المستشرقين بعروبة أشعاره حسبه وحلبونه، إلا أنه لم يثبت عليه دليل واحد ينفي عروبته.

قيل أنه ولد في قرية يقال لها جاسم، قريبة من دمشق.

كان أسمر اللون، طويل القامة، فصيحًا، كثير الفكاهة، شديد الفطنة، قيل عنه: "إن فكره يأكل جسمه، كما يأكل السيف غمده".

تمرد أبو تمام على التقاليد الفنية الموروثة من الشعر القديم، فلم يلتزم بالقالب الشعري المعروف في حينه تمشيًا البحتري بهذه التقاليد.

عُرف عنه عزة النفس، فقد امتنع أحد الأمراء ونزعه عليه ألف درهم، ولم يحس منها شيئًا، وكان ما جبًا يحب اللهو والغناء منفقًا ماله في سبيل الخمرة والشراب الذي أودى به إلى فقر شديد بجانب فروضه وتدينه.

أسرته: رحلاته: انتقل من موطنه وهو ابن سبعة عشر عامًا إلى مصر، ومكث فيها خمس سنوات، وعمل سقاءً في المسجد، إلا أنه مصر لم تحقق له آماله الأدبية و كسب الثقافة التي تلقاها في مسجد عمرو بن العاص، وتوالت رحلاته، فمدح الشام: العراق مرورًا بخراسان، إلا أنه لم يحقق آماله أيضًا، وهذا الشعر المتواصل كونه حياته

التاريخية والأدبية، وأخذ منه ظهر العين وهنا له، ومنه خلال تنقله مرحالا الفتحة له أبوابا واسعة للعلم والزهد، فاتصل بالخلفاء وأخذ عنهم، أما عنه خلاصة هذه الرحلات الطويلة فقد أنتج ديوانا كبيرا منه الشعر والنثر وهو ديوان الحماسة.

يقول: لـ وطول مقام المرء في الحي مخلقة لديباجته فاغتربا تتجددا.

مظاهر التجديد في الشعر: كان أبو تمام واسع الاطلاع واسع العلم غزير الثقافة كان عليه الأقدمون ولقافات عاصره البدع أبو تمام فهزجا لم يسبقه عليها أحد، وابتكر مذاهب في مجموعة من الأسس منها: الإكثار من المحسنات البديعية: إكثارا أفرط فيه أصبح يتكلفه، فالزائد عن الحد يقلب! العدد فأكثر منه وأعمله في بعض أشعاره وأساء في البعض الآخر. فقد تكلف بالجناس الذي ازدحم في قصائده، ومنه مظاهر تجدده في التقاليد الفنية: فالف القدماء في المقدمة الطللية، فهو لا يقصر الأطلال الموصفة ازمنا لاصاقة منها، بل يصورها وقد أقبل الربيع عليها وكساها جنة خضراء مليئة بالخصب والحياة. كما أنه لا يلتزم بالجناس الجناس في المقصورة في جميع ما ورد منه في البيت ومنه امثلة ذلك: (دخلية/داخل)، (تلال/الطلول) ... فهو يجيئ في أغلب المقاطع المقصورة، فهو يصور الطلل وكأنها ناطقة باكية والديار تتحرك بالصبر والتجلد كأنها بشر والربيع يزور هذه الأطلال ليزورها، فالربيع كعاشق حي يبدل ويتغير وكذلك السحائب لا تمر دور الكرام وكذلك الخمائل تمد أهدابها، وقد برع في هذا الجانب بامتياز.

ومع الجناس والتصوير يغلب الطباق، ويغلب عليها "توافر الأضداد" واستخدمه استخداما معقدا، فلا يقيم طباقا قليلا يا كما نألف، فهو لا يلاعب بالألفاظ وحسب، بل يتلاعب بالمعاني أيضا، فقد أعمله في تركيب الوصف وفي بعض بعض الفنية، وهذه حالة معقدة وخطيرة لم تجرؤ عليه أشعاره، مثل: وصفه الحربية الذي أشغل جيش المعتصم في فتح عمورية فهو يصف فكرة التقاء جيوشه الطبيعية التي تحولت! إلى جيوش ما نوعة قتالية أضباغها فيه تلك المفارقة بين النور والظلام أو بين الصباح والليل.

وإلى جانب هذا برزت الاستعارة، وقد صاغها في شعره مخالفا للمذهب القديم، وأخرج صورا غريبة لم تجر على عهد العرب في أشعارهم، ومنه أمثلة ذلك مما أنكره النقاد عليه في قوله:

راحت غواني الحي عنك غوانيا يلبسن ناعية تارة وهمودا.

حيث لم يعرف عن العرب أنهم شبهوا الغانيات والصدود بالثياب.

وفي أبيات أخرى يصور أنه للأحزان أشكال مع أنه لم يذكر عن العرب تشبيه الأحزان بالثياب يلبسها الناس.

STUDENTS-HUB.com Uploaded By: anonymous

وأنكروا عليه في المدح وصفه الممدوح بالإسلام أو الردة. ولم يستهجنوا تجسيم أبو تمام لصورة الفتى في صورة مشرف يجذبه الشاعر فيخرّ صريعاً.

وأنكروا عليه قوله في الرثاء:

أنزلته الأيام حيث أرادها ... إنزال رجلٍ في المكان الراكب

فأنكروا عليه تشبيهه الأيام بالمطايا، فقد رسم الأيام في الصورة مطيةً تركب.

أمّا أبو تمام بهذا المذهب الفني الغريب، وعمّاه به أمام كل من ينتقده، وينكر أنه أحد النقاد، فقد قال عليه متوعداً:

لا تسقني ماء الملام فإنني ... صبٌّ قد استعذبت ماء بكائي

فمنه في المستسائغ تشبيه اللوم بالماء، وأرسل إليه برجاجة من أدمع حارة يغلب فيها أنها بقيةٌ له بقيت من ماء الملام، فردّ عليه أبو تمام أنه بقيةٌ له ريثما من جناح الذل، إشارةً منه بقوله تعالى: "واخفض لهما جناح الذل من الرحمة".

☆ لعل هذا الوعيد في قصائد أبي تمام لم يأتِ عبثاً، فقد تحول الشعر! صورةً أخرى من صنعة البيانيين في دمشق، وهي صناعة غزل الخيوط، ونسجها في ثيابٍ بديعة فيها الزخرف والإتقان، وفي غزارة ذلك استمد مادّة شعره من حرفة التي أبدع فيها.

وقف النقاد طويلاً عند غموض أشعاره، وهذا الغموض مظهران: عجمة الفكرة وغرابة الصورة (١) أما من عجمة الفكرة، فإنه أبو تمام لا يستريح للمعنى السطحي القريب، حريصٌ على التغلغل والتعاقل في أعماق الفكرة، فضناعته عقلية معزوجة بالكثافة.

أما غرابة الصورة، فهو يأخذ صورة قديمة ويغلي بيده ويحور حولها حتى يحيل فيها منتج صورة غريبة نادرة، ومن ذلك تجديده في الصورة التي رسمها الذبيانيّ في العصر الجاهلي للطير الجوارح التي تحلّق فوق الجيش تتشاءم من دماء القتلى وأجسادهم:

إذا ما غزا بالجيش حلّق فوقهم ... عصائب طيرٍ تهتدي بعصائب

وأخذها مسلم بن الوليد وصاغها صياغة جديدة، فقال:

قد عوّد الطير عادات وثقه بها ... فهن يتبعنه في كل مرتحل

وأخذ أبو تمام هذه الصورة ولم يقنع بتجديد مسلم، فابتكر خطوطاً جديدة:

ومدّ ظلالاً كان أغربه ضحى ... بعقبانه طيراً في الدماء نواهل

أقامت مع الرايات حتى كأنها ... من الجيش إلا أنها لم تقاتل

وهو بهذه الصورة جدد رسم خروج الطير (الفتى) بصنعة عجيبة غامضة، وجعل العقبان تلازم راية الجيش وتختلف بها كأنها جزءٌ منه أو جند من جنوده، ولكنها جنود غريبة تصاحب الجيش وتلازمه.

STUDENTS-HUB.com Uploaded By: anonymous

ـ البحتري وعمود الشعر ـ

مثل البحتري المذاهب التقليدي وعبر أبلغ تعبير عن مدرسة المحافظة في الشعر العباسي المتمسكة بعمود الشعر الموروث، وبرجع الخلاف إلى قضية المحافظة والتجديد.

ولد البحتري في البادية، وكان لنشأته بين البدو الأثر الواضح في اتجاهاته الفنية، ولهذا أحد أسباب محافظته على عمود الشعر التقليدي، نشأ نشأة فقيرة، وأنشد الشعر في مباه ومدح الملوك والأمراء.

اتصل البحتري بأبي تمام، وعرض عليه عمله الفني فأعجب أبو تمام بقصيدته التي مطلعها:

أأفاق صبّ منه هوى فأفيقا أم ذا فؤاد عهده أن يطيقا

بعد أن استمع إليه أبو تمام وسرّ به، وقدّمه لأهل مدينة المنصور وأوصاهم به خيرًا ووظفوا له أربعة آلاف درهم، ثم رحل إلى الموصل وظل يتردد بين الأسر الطالبية في الشام ومدح رؤساءها وتحقق ما يطمح إليه واتصل بالخلفاء العباسيين، وأكثر من ملازمة ومدحه المتوكل، فقد بلغت مدائح البحتري في المتوكل وحده ثلاثين قصيدة.

وفي هذه الأيام حين أصبح جليس الخليفة ونديمه، فقد كان لبقاً يعرف كيف يسايره، وكان الخليفة يحبه!) شاعر يمجده بعد وفاة أبي تمام.

مصرع المتوكل ورثاء البحتري:

لما قتل المتوكل، واضطربت الأمور السياسية، رحل البحتري بعيدًا عن العراق إلى بلاد فارس، ووصف إيوان كسرى، ومكث في البلاط يودع خليفة ويستقبل خليفة، ويشيّع الغزاة ويمدح ذاك، ونظم قصيدته المشهورة التي رثى بها المتوكل:

نحل على القاطول أخلق داثرة وعادت عروف الدهر جسيًا نفاوره

وهو في هذه القصيدة يتحسّر على أيامه مع الخليفة ويرثيه رثاءً حارًا، ويتوعد الفتك بمربيه الذين كان لهم يد في مصرعه معتذرًا وفي الوفاء بأبيه، وأنه سيلقى مصيرًا لا يقل بشاعة عن مصير أبيه.

بعد فترة، اتصل البحتري بالخليفة المنتصر الذي توعد له، ولكنه خلافته لم تدم طويلاً، ثم اتصل بالمعتز اتصالاً وثيقًا وقال فيه من المدائح ما كان يقوله للمتوكل وأجيز بستة آلاف دينار، وعاد!) موطنه يتمتع بثروته ويعيش حياة مترفة ناعمة هادئة بعيدة عن صخب السياسة تحسّن واحة المليحة عن عمر بناهم الثمانين.

ومرت حياة البحتري بثلاث مراحل، هي:

المرحلة الشامية الأولى: كانت في طور تكوين شاعريته، واتصل بأبي تمام.

STUDENTS-HUB.com Uploaded By: anonymous

(٢) الرحلة العراقية: شهدت هذه الرحلة أشد فترة في حياة البحتري ازدهاراً وخصباً وعطاءً، و نظم فيها أكبر مجموعة من شعره، وتردد فيها على قارس والجزر، وكانت أكثر سنواته في العراق.

(٣) الرحلة الشامية الثانية: شهدت ترف أبو البحتري ولم تكن ذات قيمة فنية، فقد أرخى أوتار قيثارته التي كانت مشدودة في العراق.

شعره وشاعريته:

يصدر البحتري عن البداوة العربية الخالصة، ونهج في ثنائه نهج البدو والحضر، ونظراً لإقامته بأبي تمام فقد شرب (شعره بعضاً من ثقافته، إلا أنها كانت تظل طائفة على السطح، فالطبع غلب التطبع، وحاول البحتري تقليد أستاذه في فنه، إلا أنه لم يصل!) درجة الأصالة، وقال الآمدي فيه: "أعرابي الشعر مطبوع على مذهب الأوائل، وما خارجه عمود الشعر المعروف".

يلاحظ أن استخدام البديع عند البحتري يختلف عن استخدامه عند أبي تمام، من ناحيتين: أنه البحتري لم يفرط فيه إفراط أبي تمام ولم يعقد فيه ولم يتكلفه إغراق كأبي تمام، ومن ذلك: أنه الاستعارة عنده لا تخرج عن كونها الصورة المألوفة في الشعر القديم القائمة على التشبيه. وكذلك الجناس عند البحتري لا يعتمد بعنصر التصوير كما كان يفعل أبو تمام، أما اللون البديعي الذي أسرف فيه البحتري هو الطباق، ومع ذلك لم يصل إلى الغلو الذي وصله أبو تمام وهو "تناقض الأضداد"، إنما كان طباقاً سادجاً لم يتعد وضع لفظة في مقابل لفظة، ومن ذلك:

قد كنت حرّاً وأنت عبد ... فصرت عبداً وأنت حرّ

فالطباق في البيت المذكور أي الحلية الفنية عند البحتري ليست أكثر من ألفاظ متضادة يضعها الشاعر لتقابل بينها، أما عمق الفكرة وغرابة الصورة فلم تكن أبرز في شعره.

الغاية الشعرية عند البحتري غنائية، كما أنه يؤمن بالفكرة القديمة التي ترى أن أعذب الشعر أكذبه، وهذه الفكرة تشير إلى أن الشعر لا يقوم على أساس العقل والمنطق، فيقول:

كلفتمونا حدود منطقكم ... والشعر يغني عنه صدقه كذبه

كما أنه يرى أن صنعة الشعر لا تحتمل البراهين والأدلة المنطقية، وهذه الصناعة العقلية من طبيعة النثر وليست من طبيعة الشعر، فطبيعة الشعر رمزية تعتمد على الحدس السريع (لحظة شعورية) لا تحتاج إلى إقناع عقلي، يقول:

والشعر لمح تكفي إشارته ... وليس بالهذر خطّابة فطبه.

STUDENTS-HUB.com Uploaded By: anonymous

فنون شعره:

* الوصف: يعتبر البحتري زعيم فنه الوصفي في العصر العباسي، وكان بارعاً في التصوير، فوصف الربيع بروعة الخضراء وعرج على البادية فوصف ذئابها وأسودها ووصف موكب وبركة المتوكل، ومعا أبرع فيه وصفه إيوان كسرى، يقول في وصف الربيع:

أتاك الربيع الطلق يختال ضاحكا — من الحسن حتى كاد أن يتكلما

ألاحظ أن الغزارة اللفظية تخدم تماماً الحل معطيا الإشارة والإشاعة والجمال.

تجلت موهبة الفنية حينما وقف أمام صورة رسمت على أحد جدران إيوان كسرى، الصورة تصور معركة دارت بين الفرس والروم، فاندفع البحتري إلى الصورة يتحسسها بيده، يقول:

تصف العين أنهم جد أحياء — لهم بينهم إشارة غرس.

والقصيدة وحدة متراصة، متصلة الأجزاء، ظهرت فيها عبقرية الشاعر، وهذا ما جعل ابن المعتز يقول: "لو لم يكن له إلا قصيدته في إيوان كسرى - فليس للعرب سينية مثلها - وقصيدته في بركة المتوكل لكان أشعر الناس".

* المديح: كان محترفاً متمكناً بشعره، وكان جم الطلال، وقد مدح البحتري الخليفة المنتصر الذي قتل أباه (المتوكل) وزيره الفتح بن خاقان أمام البحتري وكان ذلك بعونة الأتراك، والعجيب أن يرثي المنتصر عنه ونسمع لشعره وجزاله العطاء، والحقيقة أن البحتري استطاع بقريحته أن يستميل القلوب ولو كانت ناوية ضده، فهو يدرس طبع المدوح، ومن قوله في مدح فتح خاقان وقد قتلة المعتز!) المجد طرفه — دع المجد فالفتح بن خاقان شاغله

وهو يريد الألفاظ العذبة والرشيقة يصل حبال الخليفة والوزير، وما هي إلا أيام قلائل حتى صار نديم الخليفة وشاعره الأثير.

ولم ينس أن يصور في مدائحه جلال الخلافة العباسية، وذكروا أنه المتوكل في أحد الأعياد، فرج للصلاة في موكب حافل بين قرع الطبول وصهيل الخيول، فأنشد البحتري:

بالبر عصمت وأنت أفضل صائم — وبسنة الإسلام أنت تقوم

وذكروا بطلعتك النبي فهللوا — لما طلعت منه الصفوف وكبروا

STUDENTS-HUB.com Uploaded By: anonymous

في الجاهلية المحبوبة تترك الأطلال ولكنه البحتري هو الذي يترك المحبوبة ويذهب للخليفة تكسّبًا، وكان يبدأ القصيدة بمقدمة غزلية جريًا على عادة الشعراء العرب وتتابع المدح.

الغزل: خضوعه للعواطف وانصياعه للألفاظ

ثمة شيء آخر يميز أسلوب البحتري وهو الجرس الصوتي للألفاظ، فإذا أراد أنه يعبر عن المعنى الرتيب كصد) يوظف الوسيط الصوتي الهادئ الناعم، ومن ذلك: دفقات الشعورية في الغزل بالفتيات الحضريات، فعند تغزله بهن يبدو عاشقًا آلمه الوجد، ومن ذلك تغزله بفتيات القصور، يقول:

خيال يعتريني في المنام ... لسكرى اللحظ فاتنة الغوام.

أما عند تغزله في البدويات، يذكر الظباء والآرام والأغوار والآل، كما يقول:

طالعته غورًا منه تلعة واعلة ... عنزة رمك عالج وزرود.

وكذلك تغزله بغلامه (نسيم) الذي باعه للحسن بن وهب، ولم يصبر على فراقه، فقال:

تغزل بالذكور

أنسيم هل للدهر وعد جهادة ... فيما يؤمله المحب الراصد.

الرثاء:

ومن ذلك مرثيته للخليفة المتوكل، وفيها يخيل لك بكاء المحزون شهر ودارت المناسبة في قصر المتوكل الذي تحول منه قصر رحب يدوح بالأنوار! قصر كئيب، يقول:

ولو كان سيف صانعه الفناء خالدًا ... درى الفاتك الغدار كيف تساوره

تردد في هذا البيت حرف السين والفاء وفيهما رنين حاد تعبيرًا عن الثورة التي سيطرت على نفس البحتري وهو ينظم هذه القصيدة.

أصداء

* موقف النقاد من شعره:

يقول ابن رشيق في الموازنة بين البحتري وأبي تمام:

"أما حبيب (أبو تمام) فحبذا! فرمته اللفظ وما عليه الإصباغ منه مع الحكم طوعًا وكرهًا، وطلبت إليه شاردة وراغبة بقوة، أما البحتري، فكأنه ألف الصنعة وأخذ منها بمسلك السهولة في الكلام، ولم يظهر عليه كلفة أو مشقة".

ملاحظة: العودة! آخر ٣ صفحات في مقالة البحتري.

العودة لوصية ابن عمار.

STUDENTS-HUB.com Uploaded By: anonymous

ملاحظات :

- تحكم البحتري سبب الاتصال بالوزير الفتح بن خاقان، اتخاذه وسيلة لا غاية للوصول إلى الخليفة المتوكل وقد تم له ما سعى إليه، ففي تلك الفترة توفي أبو تمام، فخلا الجو للبحتري، لفرا لحاجة الخليفة المتوكل إلى شاعر يمدحه ويمجده، وما هي إلا أيام معدودات حتى أصبح البحتري ند يم المتوكل و أنيسه وسميره، ومحل استشاره، ومن أشعاره، ومنها: ما كان بين الفتح المتوكل وعاتبة (فتيحة) ابنة عتاب، تأمره أن يقول شعراً لها، فأنشد:

تعاللت عند وصل المعنى بالصبّ — وأثرت البعد منك على القرب
وعللتني ذنب المشيب، وإنه — لذنبك، إن أنصفت يا أكرم العرب.

فلما بلغتها الأبيات رضيت و وصلها المتوكل.

- بعد تزايد نفوذ الأتراك في بلاط الخليفة العباسي، تقلّص نفوذ الخليفة، وغضب على ابنه المنتصر وهمّ بخلعه من ولاية العهد، فانتهز الأتراك هذه الفرصة، ونفّذوا للمنتصر قتل أبيه، وتم ذلك بالفعل على أيديهم، وذهبوا وزيره ابن خاقان، أمّا البحتري، فقد رثى المتوكل رثاءً حارًا، وهدّد بأنه المحرّض على قتله هو ولي العهد، فتفاجأ المنتصر بقوله:

أكان ولي العهد أضمر غدرة — وهل عجب أن ولّي العهد غادره!

- الوصف: عُرف البحتري بأوصافه، كما عرف أبو نواس بخمرياته، ويعتبر زعيم الوصف في العصر العباسي، ومن ذلك: وصفه الربيع بمعان رقيقة، حتى يخيّل إلينا أننا نرى أزهارًا مختلفة الألوان و الأشكال، وإذا رحت تخيل إلينا أننا نسمع نواح الثكالى وبكاء المحزونين، وإذا وصف الحرب دوّت في آذاننا جلبة الخيل والسلاح وقعقعة السيوف وصليل الرماح، ومن هنا، حرص البحتري على أنه يجعل بعض الحروف تتردد في البيت لتحدث رنينًا صوتيًا متناسقًا، ومن ذلك سينية المعروفة في وصف إيوان كسرى:

صنعت لنفسي عما يدنس نفسي — وتماسكت حين زعزعني الدهر — وقاحة عن لؤمها ونكسي.

الصوتيات: نجد غالبا لقاع الموسيقي سيطر عليه حرف السين.

- تجلّت موهبة الفنية بأبدع صورها حينما وقف أمام صورة رسمت على أحد جدران الإيوان، ولدقة الرسم وبراعة التصوير والتخييل، تخيّل للرائي أنها صورة ناطقة حقيقية لا مرسومة جدارية، يقول:

تصف العين أنهم جد أحياء — لهم بينهم إشارة خرس.

STUDENTS-HUB.com Uploaded By: anonymous

ملاحظات: أبو تمام:

يخالف غيره من الشعراء في قضيتين:

(عقل + شعور) - قضية مفهوم الشعر: فهو يجمع في المزاوجة بين العقل والعاطفة، الأمر الذي يجعل الأبيات تحمل أكثر مما تحتويه ولم يكن يقال بأنه على الأمراء) العقوص في الطائي.

- قضية الغاية من الشعر: يعتبر أن الشعر الخاصة لا للعامة، الخاصة المثقفة المتسعة واسعة الاطلاع، فلذلك أتى بأن المستوى الفني لا يجب أن ينزل لمستوى العامة، وفي المجمل أنه لا ينفع له، ولا يقال إنه لم يفهم شعره العامة.

قيل له: "لماذا تقول ما لا نفهم؟ فرد في البيت: "لم لا تفهم ما يقال؟"

تقل الطلول بحمل موقف ... وتمل بالصبر السيار الحوائل

دوارس لم يجف الربع رسمها ... لأمرّ في أعقابها وهو غافل

STUDENTS-HUB.com Uploaded By: anonymous

(١٠) (١١)

«مالح الدنيا وشاغل الناس»

- المتنبي -

المتنبي عراقي الأصل، نشأ في أسرة فقيرة، درج في مدارس العلوية الشيعة في الكوفة، ليتعلم القراءة والكتابة، فقد المتنبي إلى الحواضر الأدبية وذاكرة الوراقين لمجالسة العلماء والأدباء. ذكر أنه رحل إلى البادية وأقام فيها سنتين لتقويم لسانه وتعلم اللغة، وقيل أنّ أباه هرب به من المجاعة واضطر للجوء إلى العراق بسبب كثرة الاضطرابات السياسية في الكوفة.

أقام المتنبي في بادية بني كلب وأنشدهم شعره وأخذ عنهم اللغة، فوشى بعضهم إلى أمير حمص بأنه المتنبي يدعي النبوة، فقد حارب أمير الحمدانيين بني كلب وقبض على المتنبي.

رجع المتنبي من البادية إلى الكوفة، ولم يمكث فيها طويلاً، فرحل إلى بغداد بعد أنه بلغه قدرته على قول الشعر طلباً للازدهار هناك، إلا أنه لم يحظ بما كان يأمل الحصول عليه.

ارتحل مع أبيه إلى شمالي الشام، وأراد أنه يجرب حظه في الحياة وأنه يتخذ من شعره وسيلة للتكسب، فمدح سيف الدولة، إلا أنه لم يتمكن من إنشاده إياها في وقت كان فيه خلاف بين الأعراب وسيف الدولة، فلم يظفر بجائزة ولم يتم من الاتصال به.

قرر المتنبي الارتحال إلى جنوبي الشام حيث كافور الإخشيدي، وسخط المتنبي على الأوضاع السياسية الفاسدة التي يراها بعينه، فقد رأى كيف يتحكم الأعاجم في العرب، يقول:

وإنما الناس بالملوك وما — تفلح عرب ملوكها عجم
لا أدب عندهم ولا حسب — ولا عهود لهم ولا ذمم

رأى المتنبي إلى جانب خضوع الدولة في أيدي الأعاجم، أنه العصر الذي يعيش فيه قد أصبح ميداناً للطامحين والمغامرين، وقد وصل بعضهم إلى الملك والسلطان دونه أن يكونوا أهلاً لذلك، وهذا دار في ذهن المتنبي دوامة من التساؤلات، لماذا يقل مشاهيرنا؟ لماذا تقف آماله عند حد المدح وطلب العطاء؟ لماذا يقف عند حد بيع الشعر في سوق الكساد؟ ولماذا لا يكون ملكاً أو أميراً؟ فمضى المتنبي يصرّح بأفكاره في غير تحفظ ولا حذر، ومضى يصوّر طموحه ورغبته في الوصول إلى الملك والسلطان، يقول:

إلى كم ذا التخلف والتواني — وكم هذا التمادي في التمادي
وشغل النفس عن طلب المعالي — بسوق الشعر في سوق الكساد

ولم يكف المتنبي عن ترديد هذه الأنغام الثائرة في شعره، بل وصل به الأمر إلى تهديد الحكم والخروج بثورة على السلطان، وبلا شك، فإنه وجود شاعر كالمتنبي يشكل خطراً على السلطة، الأمر الذي أغضب الإخشيدي.

أُلقي القبض على المتنبي على يد لؤلؤ الفرغاني، بسبب تحريضه الثوري والخروج عن أحكام السلطة.

المتنبي

STUDENTS-HUB.com Uploaded By: anonymous

وجماعة أخرى ترى أنه المتنبي قد ادّعى النبوة في البادية وأخذ زعم على أنه قادر على فعل المعجزات.

تغيرت الأوضاع السياسية أثناء مكوث المتنبي في السجن، وتولى الحكم والٍ آخر، وكان المتنبي يرجو أنه ينال حظوة عند الأمير، إلا أنه الأمير رفضه، وخرج المتنبي منه مُحبطًا مشبعًا باليأس والشؤوم، وعاد إلى حياة البادية في شمال الشام.

قصد المتنبي أنطاكية، واتصل بالأمير أبي العشائر وقرّبه، وكان هذا الأمير على صلة بسيف الدولة فيسّر الوصول إليه، وأجزل الهبات والعطاء المتواصل له، وخلّد مقابل ذلك وحافظ مع الروم بقصائد عزيزة في الشرق الغربي، ولما قدم سيف الدولة أنطاكية قدم المتنبي إليه، وعرّفه منزلته من الشعر، واشترط على سيف الدولة منه أول القصائد أنه إذا أنشده لا ينشده إلا وهو قاعد، ولا يكلف لتقبيل الأرض بين يديه، نال المتنبي عند سيف الدولة مالًا وجاهًا، وبدأ المكائد والوشايات تعمل عملها في سيف الدولة، أمثال: أبو فراس الحمداني، وعلة صحبتهم وشكواهم لله تعالى أتى ~~الطيب~~ المتنبي عليهم، فأمر سيف الدولة غلمانه بقتل المتنبي!! فتعثر هذا له في الطريق إلا أنه نجى في الاضطراب عند بعض أصدقائه، وبهذا يكون المتنبي قد هجر سيف الدولة واتصل بغيره.

وقف المتنبي بين يدي كافور الإخشيدي وهو من أشدّ أعداء سيف الدولة، واتخذ عنده لغزية لوبًا آخر، فقد كان يقف بين يديه وفي رجليه خفاه وعلى وسطه سيف، وأنشد شعره واقفًا على خلاف عادته، ولقي الشاعر من كرم كافور ما جعله في عِداد الأغنياء، وسارع المتنبي لكشف عن أهدافه، فطلب أن يتولى (ولاية)، ولما رأى مماطلة كافور في تحقيقه طلبه أخذ يمتدح سيف الدولة وعليه أسفه على فراقه، وبالمقابل، نظم قصيدة ظاهرها المدح وباطنها التأنيب، ثم أصيب بالحمى، وأثناء مرضه نظم قصيدة عرّض فيها بكافور وبخله، وتناقل الناس هذه القصيدة حتى بلغت كافورًا، إلا أنه كافورًا كظم غيظه وطلب من الشاعر أن يعود إلى سيرته الأولى معه، ومنع الشاعر من الرحيل وبقي حوله العيون، و لما حلّ العيد وشغلت أصقاله رجال الدولة هرب المتنبي ونظم قصيدة عند خروجه من مصر، ومطلعها:

عيد بأية حال عدت يا عيد بما مضى أم بأمر فيك تجديد.

* لقب المتنبي سيف الدولة بأبي المسك والمسك أسود اللون كالكافور وفي ذلك تلميح لاسم كافور

علم سيف الدولة بمغادرة المتنبي مصر فأرسل جيشًا كافورًا وسأله القدوم إلى حلب، فعاد إلى مدحه، ثم بعث إليه بقصيدة يعزيه بوفاة أخته.

سافر إلى عضد الدولة البويهي ومدحه بخمسة قصائد، وأغدق عليه المال الوافر، ثم رحل موجعًا الملك في آخر قصيدة له:

STUDENTS-HUB.com Uploaded By: anonymous

وقد رأيتِ الملوكَ قاطبةً ... وسرتِ حتى رأيتِ مولاها.
بحثتِ عن خافقِ الضلوعِ هُمُ ... ملءَ فؤادِ الزمانِ إحداها.

وذكر أنه أنشد جدّه تغرّبه لقاتل فاتكِ الأسدي، وانتهز الفرصة لقتله، لأنه المتنبي كله قد هجا ابن أخته، وتغرّبه لأمه وأخشن في هجوها.

تعالى المتنبي بشعراء عصره، وصرّح باحتقارهم في قوله:

خليليّ إنّي لا أرى غيرَ شاعرٍ ... فكم منهمُ الدعوى وحيٌّ القصائدُ
فلا تعجبا إلا السيوفُ كثيرةٌ ... ولكنّ سيفَ الدولةِ اليومَ واحدُ

فهو يعلمهم بغرور وكبرياء أنه هو وحده الشاعر وأنه عزيز يدّعونه الشعر، فكما أنه السيوف كثيرة إلا أنه سيف الدولة واحد، فكذلك الأدباء يدّعونه الشعر كثيرون ولكنه الشاعر واحد وهو المتنبي، وهو القائل أيضاً:

أنامُ ملءَ جفوني عن شواردِها ... ويسهرُ الخلقُ جرّاها ويختصمُ.

- محاسن أشعار المتنبي:
جيادة اللفظية محكمة، بارعة في التصرف في المعاني، إجادة التشبيه والتمثيل، وحسن التخلص من مطالع قصائده إلى أغراضها الأساسية، وانفراده بمعانٍ جديدة لم يتطرق لها شعراء قبله، كثرة الحكم والأمثال.

- مآخذ النقاد عليه:
خروجه عن النحو واللغة والوزن في بعض أبياته، غموض معانيه أحياناً، والتعقيد المعنوي أحياناً أخرى، والتعقيد اللفظي لغرابة اللغة، والخروج بالشعر عن طريقه الشعر إلى الفلسفة.

١- أثر الطبيعة في شعر الصنوبري -

الصنوبري: هو أحد شعراء سيف الدولة، والشعر عند سيف الدولة سلاح مساكين: حروب سيف الدولة والنضارة وأمجاده، وتكفل بهذا الجانب المتنبي والحمداني. ① طبيعة حلب الجميلة الطريفة و تمثل بتصويرها الصنوبري.

وصف حياة الحضرية بأسلوب عذب البيان، وصف الرجس والجمال، ولم يعمد إلى "التقاليد" فلا نجد في شعره وصفاً لنباتات البادية ولم يتحدث عن الناقة والأطلال، لقد عشقت طبيعة حلب الخلابة بريا ضها الملونة بالأزهار في فن الصنوبري مما شدت إحساسه بها وانعكس حبه للطبيعة على أغراض شعره (الغزل، الرثاء، الفخر، المدح).

★ **الغزل**: الطبيعة مصدر مهم يستقي منها الشعراء صور محبوباتهم، فالطبيعة لها خصوصية عند الصنوبري وبرع في المزاوجة بين جمال المرأة وجمال الطبيعة، يقول:

أرأيت أحسن من عيون الرجس ... أم من تلك مطلعها وسط المجلس

درّ تشعّ عيونه يواقيت على ... قضب الزبرجد فوقه نسج السندس

يكسب موصوفاته الأحاسيس الوجدانية، ويخرجها من عالم النبات إلى عالم الإنسان.

« ليس الطبيعة عند الرائي الشاعر ... والغزل ... »

استهجن الصنوبري بعض الصور التي صورت بها القدماء المرأة، مثل تشبيهها بالشمس، فقال مخاطباً محبوبته عليها:

إن كنت للعين جرّة ... فأنت للشمس ضرّة

وإذا وقف الصنوبري على أطلال المحبوبة فإنه لا يتحدث عن المنازل الخاوية البالية، بل يحوّل تلك الديار إلى مرابع سعادة وبهجة ويكسبها الخضرة والأنس، يقول:

عن الحمام تطربا فوقها غناء ... دارت عليهن الغداة عصاره

وأثير وجه الأرض من أنوارها ... ما لم يكن من قبل ذاك بهار

إنه وصف الرياض التي تنبض بالحياة يغنيه عن وصف الأطلال البالية الدارسة، يقول:

وصف الرياض كناية أنه أقيم بها ... وصف الطلول فهل ترى من ذا عبث

★ **الرثاء**: يجعل الصنوبري من الفقيد روضة التي انتزعت منه، وصف الفناء في الطبيعة عنده يوازي وصف الفناء في الإنسان، وختم مرثية أخاه بالدعاء له بأن يزهر قبرها ويثمره، يقول:

ولا خلا من زاهر مثمره ... مبتسم عن زهرة مثمره.

STUDENTS-HUB.com Uploaded By: anonymous

تعلّقت مهلة الصنوبري بالطبيعة حبيبة لجأ إليها، فهو يناجي الطبيعة مستقيناً لها حبه، ولقاسمه الألم والحزن، ويأمر الطيور بالإصغاء لنوحه. جلس الصنوبري في مرتبة عواطفه وأحاسيسه ويكي ويسكي، فقد رثى شجرة كسرها الريح فماتت، وخاطب شجرة مجاورة لها معزياً، مستنكراً إياه في ظل حادثة الشجرتين، وقرن مأساتها بحبيبته بعد فقد ابنة، يقول:

كلانا نحت آثار واحدة النوى فليس له عين تحن ولا أثر.

أثبت الصنوبري جرأة في الخروج عن النظرة التقليدية للمرأة وصعوبة رثاء النساء، كما أنه تحرم من النظر إلى موت البنت مع أنه ستر لها.

كما استمد من الطبيعة العبرة والموعظة. فالإنسان كالنخلة يورق ويثمر ويموت، يقول:

ما كنت إلا النخلة أجل مورقاً غضاً، وأسوع بعد ذلك جفافا

★ **الفخر:** الصنوبري لا يفخر بأجداده وأمجاد أجداده فقط، ولكنه يفخر بما حباه الله من رياض وأنهار، وديار مخضرة، يقول:

لنا الروضات، لنا واسط نلا كاظمة وخ ولاناعط
وذاك الغزال لنا والبليخ وخيفانها الغانط

إن حب الطبيعة جعله يجد فيها مجالاً للفخر، فقد أبدع قصيدة يفخر فيها بنفسه وقومه لكنه جعل لها مقدمة طويلة في وصف الطبيعة فقد تجاوزت عشرين بيتاً مما يدل على أن الطبيعة هي المركز الذي تدار الصدارة في وجدانه.

كما أن الصنوبري يستمد فخر الطبيعة في فخره، فإنه يرى البرد عندما يتألم من تقلبات الحياة، فحبيبه لاح الشيب في رأسه، والفاختة الشاكية من هموله تصرخ! الطبيعة تقلب في ظلالها الأيام، وأعلمه أنه يستلذ عيش الشيب والمرأة بالتمتع بالروض المزهو المكسو بالحلل الخضر.

★ **المدح:**

ظهر تأثير الطبيعة في قصائد المدح، فقد كان ~~في جعل قصائده~~ يضيف قصيدة يمدح الطبيعة والممدوح، كما أنه في أغلب قصائده اتبع التقليد القديم في افتتاحها بالغزل.

استولت الطبيعة على وجدان شاعرنا، وسيطرت على ذهنه، وبالرغم من تناوله أغراضاً بعيدة عنها إلا أنه يبدع في تصويرها وما جاورها، فهو لا يكتفي بالوقوف عند المظاهر بل يطيل الادراك للبواطن.

STUDENTS-HUB.com Uploaded By: anonymous

— استطاع المتنبي أن يجعل الطبيعة فوق جمالها، فأضاف إلى جمال الورد روعة الجواهر النفيسة وأضاف إلى أريج الزهر رائحة المسك، وبدع في صناعة التشبيهات المستمدة من البيئة المحيطة وكأنه يتفوق على الأصل!

اهتم بتلوين الصور الزاهية، فلم يهتم بالإغراب في لفظه، وكانت ألوانه المطبوعة والجنس حقيقة جيدة تعد رعد الانفعال لا التكلف، كما أنه استقى صوره من الطبيعة الخلابة، فقد وقف متأنياً عند ربوعها ومزج دموعه بعطرها.

أما موقفه من الطبيعة تجاوز الإعجاب والدهشة إلى التقديس والتكريم، فقد قال:

لو كنت أملك للرياض حسابة يوماً لما وطئ اللئام ترابها

أما عن سبب كثرة أشعاره عن الطبيعة (ديوانه) فذلك يرجع إلى عدة عوامل، منها: حبه للطبيعة وجمالها، فهو سباع إليها بأحاسيسه، كما أنه تحرر من قيود المدح عند الشراء، فقد رفض أن يسخر شعره للمدح والمناسبات، ولم يجعل شعره وقفاً على الأمير، فرمى نفسه في أحضان الطبيعة.

اتخذ المتنبي من الشعر وسيلة لكل ما يعن له، فهو يرى أن جميع الأمور تصلح أن تكون موضوعاً للقصيدة، فإذا أصيب بالجرب فإنه لا يخفي ذلك بل يقول، يقول:

الشيب عندي والإفلاس والجرب هذا الهلاك وداشوم وذا عجب

إن دام ذا العلك لا عظم يدوم ولا يدوم جلد ولا لحم ولا عصب

كما أنه شبه حبيبات العدرى بحبات اللؤلؤ، يقول:

أما تراه على الكثيب منتظماً كأنه لؤلؤ ما إن له ثقب

فهو يشبه شيئاً مبتذلاً مغفراً بشيء جميل يسر الناظرين، وقد يكون هذا هروباً من الواقع أو تعزية للنفس.

STUDENTS-HUB.com Uploaded By: anonymous

١٦

- مية ابن الرومي في رثاء البصرة -

قال الأصمعي: قلت لأعرابي: ما بال المراثي أشرف أشعاركم؟ قال: لأنّا نقولها وقلوبنا محترقة.

يشترك الشعر مع التاريخ في كونهما سجلاً فكرياً لغوياً بالدرجة الأولى، فقد أسهم الشعر في تدوين التاريخ، وغالباً ما يُستشهد بالشعر والنثر لتوكيد صحة الخبر أو الحدث، ويعتبر الشعر سجلاً لمآثر العرب، فهو موضع علمهم وموطن بلاغتهم والمقياس عند بيانهم في قوة الألفاظ ودلالات المعاني.

سجّل الشعر العباسي أهم أنماطه السياسية والاجتماعية والثقافية كثيرة ومتباينة في أسبابها ونتائجها ووثّق مجريات الأحداث التاريخية، وتعتبر مرثية ابن الرومي من بواكير فنون رثاء المدن والممالك، وهي وليدة العصر العباسي الذي اتسم الشعر فيه عموماً بالنضج الفني وبعض التجديد في شكل القصيدة العربية. في هذه المرثية، صاغ ابن الرومي المأساة صياغة شعرية، فيها تهويل وإثارة لشحذ همة الخليفة (المعتمد) على النهوض لنصرة المدينة المنكوبة.

مناسبة القصيدة:

تدور هذه القصيدة حول فتنة الزنج في البصرة، وما أحدثته من خراب وضياع بين السكان، حيث ادّعى قائد الزنج (علي بن محمد) الغيب، وكانت أرض هذه المنطقة مخصبة، فاستغل علي بن محمد هذه الثورة للنهوض في وجه العباسيين، وجعل العبيد وسيلة لتحقيق أهدافه، فثاروا وتزايدوا جموعاً على مجموع. شغلت هذه الثورة الدولة العباسية أربع عشرة سنة، ولم تضع الحرب أوزارها إلا عندما استطاع "البرقعي" قتل قائد الزنج في العراق.

سمع ابن الرومي عن الفتنة المشتعلة في البصرة، فانتفض بشعره في غضب شديد، وتعتبر قصيدته هذه وثيقة مئية لحادث هز العصر، وأحسن التصوير، وإلى جانب كونها مرثية، فإنها تعتبر استصراخاً للحرب، خالية من التصنع والتقليد، كالاستجابة البلاد وأحاطت بكل صغيرة وكبيرة.

عاصر ابن الرومي المنصور وعاش الفترة التي شهدت ثورة الزنج، فجاء شعره نشيجاً مريراً، جعلت هذه القصيدة بصور البصرة مضارة وعمراناً إلى جانب صور الدمار والخراب الأمر الذي زاد من حدة الأسى، وصوّر ما فعله الزنج بالناس من تعذيب وإذلال، وما ألحقوه بالبصرة من تخريب بعد أن كانت منارة للعلم والأدب.

تتكون هذه المرثية من تسع وحدات متكاملة موزعة على عدة مشاهد، تتعاقب فيما بعد وتؤلف دلالات متعددة لتؤدي وظيفة واحدة.

STUDENTS-HUB.com Uploaded By: anonymous

(IV)

الوحدة الأولى: 4 أبيات

ـــ نفتتح باب القصيدة في الحزن، وظهر ذلك في مطلعها، ومن هذا المظاهر يتحدد موضوع القصيدة، واشتمل على تناقض واضح بين الضميرين المعتمدين، وهما: ضمير "أنا"، أي: الشاعر ابن الرومي، ودلت عليه لفظة "معلقي"، وضمير "هي"، أي: البصرة، فضمير الأنا يشير إلى صراع الذات في الحزن والقلق ماضيا ومستقبلا.

قدم الشاعر موضوعه بما يعرف ببراعة الاستهلال، إذ بدأ بجملة فعلية "فاد عز معلقي..." إشارة إلى حميمة أو سيطرة الفعل وسيادته، فهو سيرى مدينة! فطبيعة الخطاب دلت على الأسى والحزن. سعى ابن الرومي لتوظيف لفظة "لذيذ" لبيان عجم المعاناة في الاستماع، فالذي ذهب هو "لذيذ المنام" والذي حل مكانه هو "الموجع الجسام"، فالنوم لم يبق له معنى بعد هزاب البصرة.

إن أكثر قصائد رثاء المدن والمحالل جادت بدون مقدمات، وهجمت على موضوعها مباشرة، وكانت غرضها منه المطلع، فالماسي في نفوس الشعراء كانت أقوى والغرض استحوذ على مشاعرهم فأخذ الدمار التي حلت بالمدينة أو وقعة الحسرة في نفسه، فلم تكن عيناه عن البكاء، ولم تطيقا الاستسلام للنوم الهادئ.

الوحدة الثانية: (5 - 8)

ـــ تأتي هذه الوحدة في سياق رثاء المطلع الباكي الحزين، وتكشف صورة التناقض في الصراع، يؤكد ابن الرومي أنه اعتاد الزوج مع البصرة فتوقع في اليقظة وعلى لو أنه كان "رؤيا منام"، ثم تظهر الحقيقة فجأة أمام ابن الرومي، ونيصب باللعنات على قائد الزنج.

تظهر في هذه المقطوعة ارتباط وثيقة بين الترابطات النفسية من جهة والبصرة من جهة أخرى وتحول الخطاب الشعري من الضمير المتكلم إلى ضمير الجمع، وذلك من خلال لفظة "لو أننا" المؤكدة، فذات الشاعر هنا توحدت مع الآخر (أهل البصرة) وكأنه بحاجة إلى دعم نفسي والى من يشاركه همومه، وهذا الفعل - الإتيان يؤكد حضوره ذاته مع الآخرين وتصور مراحل حياته وأفكاره، وعمد إلى تكرار لفظة "لهف" لتعبير عن حالته القاسية ووجدانه، ووظف بعض الألفاظ الموحية بالهموم مثل: "الغرام" و"المستهام".

ـــ أشار إلى مظاهر التفكك الاجتماعي، كظاهرة التنجيم والسحر وتصديق الناس لادعاءات صاحب الزنج، إذ بات التنجيم أداة لتكوين قلوب الأنصار. ومن البصرة وصفاً عاطفياً مأساوياً معتدلاً على المآسي المدينة، فبعد أن قدم هزيمة المتقبل في ذهاب لذيذ المنام عرض علينا هذه المقطوعة لتقيم وتحليل الأسى بالصور الملموسة وذكر (أ) الإطار الزماني "مهجمين" والمكان "البصرة"

STUDENTS-HUB.com Uploaded By: anonymous

الوحدة الثالثة: (١٣ - ٣١)

يدخل ابن الرومي هنا في صميم الموضوع، مصبّاً كل الإدانة والتركيز، حيث صوّر مباغتة (الزوج) لأهل البصرة بالسيوف، وتحوّل هنا إلى مواصل حربي يسجل يوميات الحرب، وساق طيف أفعال الزوج الوحشية، فقد أفرد أبياتاً عن استهتاب النساء إشارة منه إلى قضية الشرف وهتك العرض

إن ابن الرومي في هذه الوحدة لا يسرد أخباراً عن أناس قتلوا أو أصيبوا، بل يضع أمامنا مشهداً حياً لأسرة أهل البصرة بأسلوب تصويري رسم مشاهد الدمار وصنوف التعذيب والتنكيل. ومن مظاهر الاستطراد والاستبطاء في هذه الوحدة: تصوير مشهد ذبح الأطفال، وتسجيل حدد القتلى، لتوسيع فكرة الانتقام، والجور والحدو إلى إغراقه المدينة بالمياه وإشعال الحرائق فيها وإعمال السيف في رقاب أبنائها.

بكى ابن الرومي الأهل والبلد متأسفاً على مقتل الأبرياء، فاستوحى الحسنية بالدمع، ونقل الصورة نقلاً وجدانياً جعلها تكتسب قيمة تأثيرية إلى جانب قيمتها الفنية، فالحركة والتتابع في الصور تبين هول الفتنة، تصوير حالة إرعاب النساء اللواتي استفظعن مصابهن قبل موعد الإنجاب. كما أنه رسم صورة الفزع الذي دبّ في أهل البصرة، حيث ابيضت رؤس الغلمان لشدته!! وما ذلك إشارة إلى قوله تعالى: "فكيف تتقون إن كفرتم يوماً يجعل الولدان شيباً".

ألمّ الشاعر على وصف ما أحلّ بالنساء، فالصورة والحركة والتجسيم وحسن التقسيم تتظافر كلها مجتمعة لإخراج هذا المشهد المؤثر. وتحدث عن لحظة السبي مروراً إلى تقسيمهن بين الزوج وصاحب العمل إماءً.

الوحدة الرابعة: (٣٢-٣٣). عاد الشاعر للنواح من جديد، فأطلق صرخات عنيفة لتخفف الضغط الواقع عليه، فقد فاض زمن رغد العيش وتحوّل إلى زلة النكبات.

الوحدة الخامسة: (٣٥-٣٨)

ينقل هنا ابن البكاء المأساة بعد البكاء على الخسائر البشرية، إلا أنه الخسارة البشرية تستعطفه من جديد، فأضاف الشاعر المقارنة بين البصرة قبل النكبة وبعدها، وعرفت هذه الفترة - كما أشار البيت ٣٥ - "ببيوتة العجزة". فقد عاد بنا الشاعر إلى البصرة قبل خرابها من طرف الزوج وهو تقلّ قصورها الشامخة (أطلال وعمرانها) خراب، وتميز هذا الجانب بالتسجيل الشمولي لنكبة البصرة، ومن الصور التحسيلية التي رسمها ابن الرومي: صورة بنية المجتمع ومراتب فئاته، حيث يأس على أهل المرتبة الذين زهد الزوج عزهم وأموالهم وذراريهم.

استخدم الشاعر لفظة "ربّ" التي تفيد التقليل، ليدلل على أنه هناك فرقاً بين الخسائر البشرية والخسائر المادية، مع العكس من لفظة "كم" في المقطوعة السابقة، وهو بذلك يجعل المتلقي يتصور نكبة المدينة ومأساة الأهل.

الوحدة السادسة: (٣٩ - ٥١)

وقفة الشاعر هنا حيث بدأ هذه المعلقة بنبرة مدحية تراثية تذكر بالوقوف على الأطلال، فقد مرّ بالأداة المناسبة (الأطلال). كشفت هذه الوحدة عن حيرة الشاعر وقلقه من هذا المصير، ومن دلائل ذلك: توظيف مفردات تشير إلى أسرار خفية مثل: "فما أدلها"، "أنى صبوحها ...".

تجلت في هذه الوحدة شخصيتان: شخصية تتكلم، تسرد وتكشف وتتأمل، وشخصية حاضرة غائبة، ولكنها متكلمة في غيابها، حاضرة في كلام الآخر، مرهونة على الذاكرة وعين البصيرة.

- من خصائص أشعار النكبة: توظيف أسلوب المقابلة، فقد وصف ابن الرومي حال المدينة قبل تخريبها وبعد ما حلّ بها على أيدي الزنج في مشاهد متلاحقة تقابل بالمناسبة.
وتوظيف الأسلوب التراكمي، لتصوير الفظائع التي حلّت بسكان البصرة وأزقتها وساحاتها وقصورها، لتستمر اللوحة في النمو حتى تنتج لوحة مرعبة دلوة مستمدة بهيئة الوجوه وقد رسمتها الدماء.

"لسعي الرياح عليها"؛ لأن البصرة كانت مدينة مزدحمة ذات أسواق تعج بالناس، وكانت ذات سفن كبيرة "كالأعلام" ولكنها أصبحت خالية لا يسمع رماد وتراب لم يعد أنه سلطت الحريق عليها، ومما يزيد من حدة المأساة، أن الناس لم يهجروا أحيائها بل جاءوا أشلاء ممزقة (أيادي مقطوعة، أرجل مبتورة، وجوهها مختلفة بالدم والرمل).

الوحدة السابعة: (٥٢ - ٦٦):

تشهد هذه اللوحة صورة أخرى للكرب والأسى، فهو يسأل دعبل أنه يجد إجابة، ومن الأسئلة المؤثرة: ~~أنى عبادة عينيه~~ سؤال عن رواد المساجد، يقول: أنى عبادة؟ أنى عمارة؟ أنى فتيانه؟ أنى أشياخه؟ ثم يتذكر النكبة التي أصابت البصرة وأدت إلى فقد صفوة من العلماء.

الوحدة الثامنة: (٦٧ - ٧٤)

يؤكد الشاعر على البكاء والمناحة على الذين قتلهم الزنج، وكلما شعر بالضعف والانهزام أرسل صرخات من أعماقه قبل أن يكشف عن نفسه وهويته، ومن ذلك: استغاثته واستنجاده بمحمد - صلى الله عليه وسلم - على نهج امرأة التي صرخت "وامعتصماه"، فقال: "يا محمداه"، وظهرت هنا صورة الدعاء بالسقيا، والاستفادة من الموروث الديني المتمثلة بالصلاة على أرواح القتلى والسلام لهم.

STUDENTS-HUB.com Uploaded By: anonymous

الوحدة التاسعة: (٧٥-٨٦).

أشار ابن الرومي في خاتمة قصيدته فكرة الثأر، بعبارة أخرى، دعا إلى الثأر، فقد تحول من وصف الكارثة المروعة إلى استنفار الناس إلى حتمية ردّ وسيل الزنج الكاسح عن البصرة، ودعا أهل البصرة إلى جمع الكلمة وشحذ الهمة وابتغاء رضا الله والتهيؤ بالجهاد دفاعًا عن الديار والحرمات (الدعوة إلى الجهاد والانتقام).

عاتب ابن الرومي أهل البصرة عتاب المحب مؤكدًا أنه مغادرة البصرة لا تحمل سوى التشرد والذل، ويبرز جوانب الأمل والتفاؤل، وكأنه مقاهر الفجيعة والبأس التي أبرزها في الوحدات السابقة لم تقرّه بينه وبين الدعوة إلى الصبر ومقاومة الخصم، فقد رأى للرجاء خيطًا ممدودًا نحو المستقبل، ووجّه رسالة ضمنها مبادئ جامعًا مستمدًا من التعاليم الإسلامية، فالتشهير بالقاعليه (العبيد) يرمي إلى تهييج النفوس بإثارة الحمية الدينية واستغلال عواطف الرحمة والشفقة وحث الجميع على قتال مدمري البلاد. رسم الشاعر صورة للزنج كأنهم قوضويون إشارة إلى فكرة خشية الحضارة وتدميرها من الزنج.

وظف صيغة المبالغة، مثل: "اللعين" إشارة إلى عائد الزنج (الخائن اللعين).

(٢٨)

تلتقي أواخر القصيدة بأوائلها، بدأها بحالة الشاعر الحزينة مرورًا بصورة إنسان البصرة وانتهاءً بالصورة الختامية النافعة بدلالات الهروب في وجه الزنج، وقد أحسن ابن الرومي فعل قصيدته بفصل مناسب لمقام رثاء مدينة منكوبة، وإنه كان ابن الرومي لم يشهد هذه المأساة إلا أنه كان صادقًا مع نفسه، إذ جادت خاتمة بالدعوة إلى الجهاد فضرب على الوتر الحساس بالنسبة لمسلمي زمانه.

أبدع ابن الرومي في خلق وحدة المشهد، وبرزت النزعة القصصية في القصيدة، فالشعر يتناول حوادث التاريخ ومصائر الشعوب، ويرمي في سرد الانفعالات الوجدانية بأسلوب قصصي يساعده على رسم صور الكتبة، فالتقى الأسلوب الاسترجاعي مع العرض التكويني، ففي المقطع الأول، فسّر أسباب حزنه بعد تدمير البصرة وعدد الخيرات ودور العلم، وفي المقطع الثاني، سجّل الانتهاكات الهمجية، وفي المقطع الثالث، عرض مقارنة (مقابلة) بين ما في البصرة وما آلت إليه.

وظف الأساليب الإنشائية (دعاء، نهي، تمنٍّ، طلب، استفهام، استسقاء، ونداء) للهروب في نقل الصور، لم يجعل ابن الرومي البنية وحدة النظم، بل جعل القصيدة كاملة "سلكًا واحدًا" لا يتم الانتظام المعنى (مبنى ومعنى). كما أدّت اللغة دورها في تجسيد تجربة ابن الرومي ورصد التحولات التي أصابت البصرة.

STUDENTS-HUB.com Uploaded By: anonymous

(٢١)

- رهين المحبسين -
أبو العلاء المعرّي

عصره:

ارتبطت آراء المعري ارتباطاً وثيقاً مع أحوال عصره، فتمزق العالم الإسلامي منذ استبداد الأتراك بالحكم بعد مقتل المتوكل ووزيره ابن خاقان، فاضمحل الخليفة العباسي لا حول له ولا قوة، وكثرت الثورات والحركات الانفصالية، وتفتت جسد العالم الإسلامي إلى دويلات يحكمها أمراء عاثوا فيها فساداً، وشبّت صراعات بين تلك الدويلات الصغيرة.

شهد موطن المعري (سوريا) اضطراباً كبيراً، فانعدم العدل والإنصاف وساد الطغيان والظلم، فكان المعري شاهداً على التنافس على الحكم والمال، وتأثر بتلك الأوضاع فنقدها نقداً لاذعاً وعارض سياسة أرباب الحكم.

أما الحياة الاقتصادية، فلم تكن أفضل من السياسية، فقد أثقل كاهل الناس بالضرائب التي أرهقت الشعب إرهاقاً شديداً بسبب سياسة الفاطميين. والحياة الاجتماعية أصيبت بالوهن، وضعف التماسك العائلي، وسادت الآراء والمذاهب، وانتشر الفساد، فأصبح الدين أضعف من أن يسيطر على النفوس والغرائز، وانتشرت الجريمة والغش، وأصبح الإنسان لا يفكر إلا في مصلحته.

حياته:

عُرف بالمعرّي نسبة إلى معرّة النعمان، واشتهر بكنيته "أبو العلاء". أصابه الجدري وهو ابن أربع سنوات، وقيل أنه تم السادسة فقد بصره، وقيل أنه لا يعرف عن الألوان إلا الأحمر، لأنه ألبس ثوباً مصبوغاً بالقصب عندما مرض بالجدري، وكل ما يذكره من الألوان هي الشهرة ونشره إنما هو تقليد الغير.

كان بيته بيت فضل وعلم، حيث قال الشعر وهو ابن الحادية عشرة من عمره، وحفظ القرآن الكريم مع القراءات وجالس العلماء، واطلع على الثقافات المتنوعة، ورحل إلى بغداد ووجد فيها كثيراً من المضايقات، ومن ذلك: مجلسه مع المرتضى، وخلاصة الحديث، كبر المعري عن إجابة المتنبي في حين كان المرتضى يتغنى المتنبي ويتعصب ضده، ثم أنشد المعري مرة للمتنبي قوله: "لك يا منازل في القلوب منازل ..." فغضب المرتضى وأمر بطرد المعري من المجلس، وقال للحاضرين: إن المعري يقلد من هذه القصيدة قوله:

وإذا أتتك مذمتي من ناقص ... فهي الشهادة لي بأني كامل.

وقيل أنه دخل مرة إلى مجلس الخوئيين، فقالا أحدهم: "ليدخل الأصبهل"، أي: الأعمى.

STUDENTS-HUB.com Uploaded By: anonymous

لذلك، فإن المعري لم يلبث في بغداد طويلاً، ثم رجع إلى معرة النعمان، ولزم بيته، فلم يخرج منه، وسمى نفسه "رهين المحبسين"، أي: محبس البيت ومحبس العمى، وأضاف محبساً آخراً وهو محبس الروح في الجسد، يقول:

أراني في الثلاثة من سجوني ... فلا تسأل عن النبأ النبيث
لفقدي ناظري ولزوم بيتي ... وكون النفس في الجسد الخبيث

أقبل الأدباء والعلماء عليه، وقصدت مجالس العلم للاغتراف من فنونه وعلومه، وكان آية في الذكاء وسرعة البديهة، قوي الحفظ واسع الاطلاع، غزير العلم. توفي سنة ٤٤٩ هـ. وأوصى أن يكتب على قبره:

هذا جناه أبي علي ... وما جنيت على أحد

آثاره: ترك كثيراً من الآثار، بلغة سجعية مؤلفاً، شعراً ونثراً، ومن أهمها الدواوين الآتية:

- سقط الزند: ديوانه شعري ضخم جمع فيه، تعدد موضوعاته حول الوصف والرثاء والفخر.
- الدرعيات: قصائد لوصف دروع المحاربين.
- اللزوميات أو لزوم ما لا يلزم: وهو أصعب ألف بيت، فيه آراء فلسفية وتوجه به بعض الأدباء بالزندقة، واتهمن فيه فكره التشاؤمي، وعرف بالتعقيد في كتابة الأدبية.

أما أهم مؤلفاته النثرية فأهمها: رسائل أبي العلاء، ورسالة الغفران، كتاب الفصول والغايات، رسالة الملائكة، رسالة الصاهل والشاحج.

دوافع التشاؤم العلائي:

عاش المعري حياة مضطربة، فيها قلق وتشاؤم، ويرى أن الإصلاح أمر محال، متأثراً بأبطال الحياة القاسية التي عاشها، فهو شديد الكراهية للحياة وملذاتها، ومن دوافع ذلك:

عمى البصر:

فقد أصيب بالجدري في سن مبكرة، الأمر الذي أدى إلى فقد بصره، وبالرغم من أنه ذلك كان سبباً لهشاشته، إلا أنه ذلك لم يمنعه من التقوقع في العلم، إضافة إلى أنه دميم الوجه قصير القامة نحيل الجسم، فكل تلك الصفات كوّنت عنده عقدة نقص جعلته يميل إلى اعتزال الناس.

STUDENTS-HUB.com Uploaded By: anonymous

فقد أباه:

فقد المعري أباه وهو أمر موجع للناس إليه، وقام أبوه بكل ما تقرضه الأبوة نحو الابن العطيف، وشعر بكثير من الاطمئنان، إلا أنه الدهر سلب منه هذا السند، فتأثر المعري بموت أبيه أيما تأثر، ورثاه بقصيدة عظيمة.

فقد أمه:

بعد تعرضه للإساءة في بغداد، قرر الرجوع إلى بلده، وفي طريقه إلى المعرة وصله نبأ وفاة أمه، فكان هذا الموت النقطة التي طفحت بها كأس مصائبه، فقرر اعتزال الناس.

مظاهر التشاؤم العلائي:

اعتزاج التشاؤم برؤية المعري الإبداعية!! فلسفة

سلك المعري طريق التشاؤم، وتحدث فيه عن الطبيعة البشرية والدنيا والموت والمرأة والعدم والفشل والسياسة، ولا يرى من الحياة إلا الناحية السوداوية، ولو تعرضت له الناحية البيضاء لأعرض عنها، ابتعد عن ملذات الحياة واختار عيشة الزهد والتصوف منتظراً نهاية الحياة. وهذه المظاهر:

- **الطبيعة البشرية:**

جميع البشر في نظره سواء في الفساد وقبح الطبع، فالطبيعة البشرية - من وجهة نظره - فاسدة من أصل الخلقة، وإن تفاوت البشر في الفقر والغنى والجمال والقبح إلا أنهم سواسية في الشر، يقول:

إن صاحبت الناس أخلاقهم يعاش بها ... فإنهم عند سود الطبع أسواء

هكذا ينظر المعري إلى الطبيعة الإنسانية، فالإنسان شرير بطبعه، والفساد غريزة فيه، ولا شك أنه ما لاقاه المعري من آلام في حياته وعصره هما اللذان قوّيا في نفسه هذا الرأي. وما دامت هذه طبيعة البشر، فمن حسب الشر فيا ليتهم لم يولدوا؛ لأنه ولادتهم كانت شراً وبلاء.

يا ليت آدم كان طاوى أمرهم ... أو كان حرمها على ظهار

- **هجر الناس واحتقارهم:**

بما أن الطبيعة البشرية فاسدة، فإنه المعري يرى الشفاء من عيوبه في البعد عنهم، وعليه أنه ليستغني عنهم مهما كانت حالته، فملبس وطعام والعطايا التي يهدى بها تغنيه عن كثير من الأبواب، يقول:

عطاء من يد الأعمى يرد بها الهوى ... أبر إليه من جدن وصاحب.

ويرى أنه الوحدة راحة عظمى، فبالاجتماع سيتولد القيل والقال، يقول:

إن الطبائع طالما ألفت جلبت ... شراً تولد منه القيل والقال

STUDENTS-HUB.com Uploaded By: anonymous

الدنيا:

هو لها باغضٌ، وعليها ناقم، واشتقه لوم الإنسان وخسته من لؤمها وخستها، وملأ كتابه "اللزوميات" بهذه المشاؤم الواسع من الدنيا، ووصفها بأنها دار آلام وعذاب، وغير شاهد لمشاؤمه من الحياة، ونظرته السوداوية إلى الدنيا، قصيدة غير مجد، مكلها تعب وتنغيص وكد وأي فرق بين صوت النفير في الميت وصوت المبشر بالميلاد! يقول:

غير مجد في ملتي واعتقادي ... نوح باك ولا ترنم شادي

وشبيه صوت النعي إذا قيس ... بصوت البشير في كل ناد

فالدنيا جحيم، أف لها ولأبنائها، ليس بها إلا المصائب والبلايا. كما أنه الدنيا دار شقاء، ليست دار إقامة، ويتعجب من إقبال الناس عليها، يقول:

تعب كلها الحياة فما أعجب ... إلا من راغب في ازدياد

الموت:

إن المخرج عند المعري من هذه الدنيا هو ~~الحزن~~ الموت، فالدنيا آلام وعذاب ونكبات، ولا بد من الانعتاق منها، فنخرج من هذا العالم الموحش ونستريح من متاعبه وآلامه، فالحياة عذاب والموت راحة وهناء.

ومن شدة كراهيته للحياة فإنه يعتبرها هموماً، ويعد الموت عيداً، وإني تشاؤمهم بعد هذا التشاؤم، أنه يرى الرجل يوم موته عيداً، يسعد به!! يقول:

أنا هائم طول الحياة وإنما ... فطري الطعام ويوم ذاك عيد

يدعو ربه بتعجيل الموت، والرحيل من الدنيا، فقد طال به المقام، ولم يجد فيها إلا التعس والشقاء، يقول:

ربِّ حتى أرحل عن هذه الدنيا فإني قد أطلت المقام

العدم والنسل:

يكتف المعري بتمني الموت لنفسه، بل حمله تشاؤمه مع الاعتقاد بأنه الأمم كل الأمم هو إنجاب الأبناء، فتمنى للوليد ألا يولد ولحي أم يفنى! يقول:

فليت وليداً مات ساعة وضعه ... ولم يرضع ثدي أمه النفساء

فالنسل في نظره ذنب عظيم من الذنوب التي ارتكبها الإنسان، وهذا جناية عظيمة في حق الأبناء، لذلك، فالمعري ينصح الرجل بعدم الزواج، وإنه كان لابد منه فعليه بالعقيم من النساء!

أرى النسل ذنباً للفتى لا يقاله ... فلا تتحمل الدهر غير عقيم

STUDENTS-HUB.com Uploaded By: anonymous

(٢٥)

المرأة:

رأي المعري في المرأة قبيح، فهو يسيء بها الظن في جميع المراحل، وكان في جميع آرائه حول المرأة متشائما منها، لأنها أصل النسل في دار الدنس. كما أنه يمنع المرأة من أي عمل سوى القعود في البيت وغزل الصوف، ولا حاجة في تعليم المرأة، ويخشى بتعليمها الغزل والنسيج، وإذا تعجب الناس في تعليم المرأة بالصلاة، فإنه المعري يرى أنه تعلم قصار السور يخفف لها، يقول:

علموهن الغزل والنسج والرد ... وخلوا كتابة وقراءة
فصلاة الفتاة بالجهد والإخلاص ... تجزي عند يونس وبراءة

السياسة:

إن آراؤه السياسية تابعة من فساد المجتمع، فالحياة السياسية كانت سيئة بعد أن استولى الترك على أمر الخلافة، وتقاولوا على الخلفاء عزلا وسجنا وتعذيبا، وصار المعري السلفة، فالحكام جماعة فوضى ورذيلة.

يتهكم المعري من أولئك الذين يرفعون أصواتهم على المنابر بالدعاء للملوك والسلاطين الظلمة حتى يكف المنابر من فعلهم الشنيع، يقول:

يدعون في جمعاتهم بسفاهة ... لأضرهم فيكاد يبكي المنبر

ذروة التشاؤم أو فلسفته في الطعام:

تبلغ ذروة التشاؤم عنده في أنه فضل ألا يكون بناتيا؛ لأنه الاعتداء على الحيوان ظلم وتعسف، فلم يكتف الإنسان بظلم أخيه الإنسان، بل تعداه إلى ظلم الحيوان والجور عليه، فاطلق يترك اللحم ومشتقات رحمة بالحيوان.

التعقيد في النظم والتأليف:

- **التعقيد في الشعر:**

بالغ المعري في تعقيد الشعر أيما مبالغة، ولزم نفسه ما لا تلزمه قواعد العلوم والقوانين، ففي اللزوميات كانت قصائده تأخذ ثلاثة حروف روي على طول القصيدة، فلم يقوم أحد على التعقيد الذي سلكه، وكان لضيق نفسه وسخطه على الحياة أثر في هذا التعقيد، وأكثر من الألفاظ الغريبة والجناس، ليدل على مهارته في اللغة مثل أنه يدل على مهارته في استخدام لونه قديم من ألوان البديع، ومقارنة ألفاظه بالغرابة حتى أنه كان يشعر القارئ بأنه قصائده متنه من متونه اللغة العويصة وكان من المفروض أن يبتعد عن تلك الألفاظ التي لم تكن تلائم غرض الوعظ والإرشاد في لزومياته. لزم نفسه استخدام الجناس بين القافية وأول لفظة في البيت، يقول:

أدراك يوما قائل عند نهية ... خلصت لنفسك بالجوح تراك
أدراك دهرك عند ثقال بجهده ... فدراك منه قبل فوات دراك

STUDENTS-HUB.com Uploaded By: anonymous

وجانس بين القافية وكلمة وحرف في كلمة أخرى، مثل:

ذوى كالرواضع وخيل يوم سبت جمد مد لظى أسف ذوال

فهو جانس بين "ذوى" والكاف التي قبلها والقافية، فالجناس عنده عيب لغوي لا يراد به إلا التعقيد والتصعيب.

وقد تحول حياة المعري أو زاد الغموض، يقول:

بناني الطويل وعيني البسيط وأصبحت مظلماً كالرجز

أصبحت الحياة حوله معقدة، وما دفعه إلى ذلك إلا رؤيته المعقدة المشاءمة من الحياة، فأخذ يعقدها في كل شيء، حتى في أعذب ما تتلفظ به الألسنة، ألا وهو الشعر.

- التعقيد في النثر:

عقد نثره تعقيداً شديداً فاقه تعقيده في الشعر، فيه غموض وغرابة، ولم يتأثر بنثر عصره إلا بصلة واحدة وهي السجع الملتزم، ومن العقد الملحوظة في نثره: استخدامه الغريب الوحشي من الكلام والأمثال والإشارات الفارسية، ولا يبني سجعه على حرف واحد بل على حرف وثلاثة أو أكثر.

ويتجلى التعقيد في نثره ظاهراً في رسائله الشخصية، فهو يعقد الرسائل تعقيداً أظهر منه مقدرته اللغوية وإلمامه بمصطلحات عصره، وقد أصبح التعقيد عنده فناً من فنون اللغة يغلبه في جميع أعماله الأدبية.

STUDENTS-HUB.com Uploaded By: anonymous